ليس للأبد هذا الخراب

ياسر خنجر (الجولان)

I

مكتفياً، كنتُ في البدء
أُسمِّي هبوبَ الهواءِ كما أهوى
نسيماً إذا أحببتُه
وريحاً لها الجهاتُ كلُّها
ثمَّ، حين يُوجِعُ رغبَتِي أو يسرق
حبَّةَ القمحِ إلى غيرِ خبزي عاصفة.
أُسمِّي خُطايَ على الأرضِ باسمي
كنعانُ يمشي هنا، فتُشبهُهُ البلاد
تُباهي به بشراً مُقيمين أو عابرين
زرعاً، طيراً جارحاً أو دواجن
ماشيةً أو ضواريَ، تُباهي به.
أُسمِّي مِن بين النساءِ امرأةً حبيبة
تختارُني فنقترنُ ونُنجبُ كفايةَ اسمَيْنا.

II

عشيرةً، كنتُ، يا عشيرة، ومكتملاً
وإنْ في ثُقُوبِ الصَّخرِ نغفو
تحتَ سقفِ الطِّينِ أو في بُيُوتِ الشَّعْر،
نصطادُ طريدةً لنقتاتَ أو نغرسَ الزَّرعَ، نرعى
عشيرةً كنتُ يا عشيرة
ننتمي للماءِ حين ينزفُ من شُقُوقِ الأرضِ أنهاراً

أو حينَ يسيلُ مِن شفةِ السَّحابةِ مطراً
ننتمي للنَّارِ دافئةً في موقدِ الحطب
للمحراثِ للشَّمسِ تلسعُ ظهرَ السُّنبلة
وأيضاً قبلَ كلِّ شيءٍ للعشيرة
نَتْبَعُ إيقاعَ وُجهتِها في الحبِّ أو الموت
مِن الرَّحمِ إلى الكَفَنِ
هل انتقيناكِ إلهةً، يا عشيرة أم انتقيتِنا عابدين؟

III

وحيداً، كنتُ في بيتي، غافلاً
ظننتُهم ضُيُوفاً، بأمتعةٍ قليلة
خفافَ الظلِّ يأتون ويَمضون.
قلتُ أُقاسمُهم بعضَ ليلي،
وفاكهةً نضجتْ على شجري
فنأتنسُ قليلاً، ثمَّ يَمضون إلى مشاغِلِهم
يَعودون من حيثُ جاؤوا خفافاً.
ظننتُهم خفافَ الظلِّ حين جاؤوا،
لكنَّهم سرقُوا ظلاليَ كلَّها،
وأقامُوا على جسدِي مذابحَهُم.
وحيداً كنتُ في بيتي
لا إخوتي يسندُون ظهري،
ولا الدَّربُ أليفٌ تحتَ قدمَيّ.

IV

شظايا، كنتُ في الأرضِ، شتاتاً.
طُردتُ من بيتي ليسكنَهُ الغريبُ، ومِن حقلِي طُردت،
ومِن جسدِي الذي صارَ مجزرة.
كان عليَّ أن أنجوَ لأُدركَ ما جرى

فوجدتُني غيري وقد أرهقتْني الأسئلة
مَنْ أنا دون اسمٍ وعنوانٍ؟ مَنْ أنا دون ذاكرةٍ أو حُلْم؟
لم تكنْ خطايَ واضحةً حتَّى تيقَّنتُ أنِّي
"لستُ منهزماً ما دمتُ أُقاوم"
وإن شرَّدتْني الخسائرُ باسمِ النكبةِ والنكسة،
وإن سُمِّيتُ لاجئاً.
شظايا كنتُ في الأرض شتاتاً
كما لو أنَّها البلادُ، رئةً، وقد زفرتْني
لتشهقَ هذا الخرابَ.

V

مُقاوِماً بدأتُ الدَّربَ، وأُنهيهِ مُقاوِماً.
لا أمسَ يحملُني إلى حُلْمي
غيرُ ذاكرةٍ شلحَت عن خُطاها رمادَ اليأس
لتختارَ ضوءً ساطعاً في آخرِ العتم.
ليسَ للأبدِ هذا الخرابُ المعشِّشُ في وقتِنا
هنالك غدُنا الحُرُّ الذي نسعى إليه معاً.
ضَعْ حبرَكَ في دواتِهِ وخُذْ ريشةً من يدَيْها
لنكتبَ، ليسَ للأبدِ هذا الخراب
ثمَّةَ نايٌ كامنٌ في القصبِ اليابسِ
هاتِ أنفاسَكَ لنعزفَ أو نكونَ الرِّيحَ التي تجرف
ما تساقطَ مِن القصبِ اليابس،
ليس للأبدِ هذا الخراب
ثمَّةَ نايٌ يعزفُ غدَنا الحُرَّ الذي نكون